في ذكرى صالح القرمادي :

لست بعيدا حتى أذكرك

لست قريبا حتى أراك

بقلم سُوف عبيد

آخر عهدي به كان جالسا في سيارته يدير محركها بعد أن غادر المركز الثقافي الدولي بالحمامات إثر انعقاد جلسة صباحية طويلة في الملتقى الثاني للشعر... وقتها حضر أغلب الشعراء الشبان وعدد وافر من المثقفين وكان صالح القرمادي سيد تلك الجلسة با إنه أذهل الذين استمعوا إليه لأول مرة وأفحم الذين كانوا يحملون عنه أفكارا مسبقة حول اللغة والفكر لأن الرجل قد لخص وقتئذ البحر في كأس حينما استعرض بفاعلية العمق وقوة الإيجار تاريخ الشعر العربي فأقنع وأخرس الذين يتهمونه بالدارجة والفرنكفونية فكم كنت متواضعا يا سيدي حينما لم تفتخر بالكتب والمقالات التي نقلتها من الفرنسية إلى لغة الضاد فكم من متحمس لها قد أساء إليها.

(2)

تلك الجلسة التاريخية ستظل وضاءة في حركة الشعر العربي بتونس لأنها طرحت أسئلة خطيرة في ذهن الشعراء الحاضرين أهمها سؤال اللغة وسؤال الفن وكذلك سؤال اليديولوجيا وأجاب المرحوم صالح القرمادي جوابا حاسما يدل على سعة الاطلاع على التراث العربي والمدارس النقدية الحديثة فبين أن سر لغة الشعر كامن في طرافة خروجها عن النسق العادي المتوقع عند المتقبل وهو ما سماه بالانزياح أو ما عبر عنه القدامى بالعدول أو التضمين.

وتدخل بعده الأستاذان المنجي الشملي ورشاد الحمزاوي لتوضيح هذه المسألة فكانت حقا جلسة نادرة بين النقاد والشعراء ليتها تواصلت في مناسبات أخرى.

(3)

إن شخصية المرحوم صالح القرمادي متعددة الجوانب قصةً وشعرًا ودراساتٍ لغويةً ونقدية وترجمة ومشاركة فعالة في عديد المجالات من أهمها (التجديد) و (ثقافة) و (أليف) ألا أن قيمة الرجل الحقيقية تكمن في تحريكه للساحة الثقافية بتونس منذ أواخر الخمسينات إلى أوائل الثمانينات بمعاصرته عن قرب لشخصيات مهمة مثل البشير خريف ومحمد فريد غازي وتخريجه لعدد هام من الشبان هم الآن قد أثبتوا مقدرتهم في عديد المجالات قصة ونقدا وشعرا فصالح القرمادي ثالث ثلاثة في كلية الآداب بتونس درسوا بعمق الأدب العربي المعاصر وكان لهم الفضل في تحديد ملامح هذا الجيل الأدبي الجديد وهل يمكن أن ننسى توفيق بكار والمنجي الشملي؟

(4)

إن صالح القرمادي مثال نادر للمثقف الذي عاش تناقضات عصره وبيئته فعبر عنهما بصدق وبشجاعة ولم يركن إلى الأبراج العاجية بل خالط الناس جميعا وجلس إلى الأدباء الشبان وساهم في عديد النشاطات بحماس وبقدر ما كان يسمح به المجال وقد نختلف في قيمة شعره وقصصه ولكننا نكبر فيه مقدرته العلمية في المجال اللغوي بالخصوص ونتعلم منه تواضعه ودأبه في سبيل الكلمة الملتزمة.

وتمضي بنا السنوات يا سيدي ولكن صورتك وصوتك لا يزالان في ذاكرتي جلاء وشموخا برغم جحود البعض وبرغم نسيان البعض الآخر وبرغم هذا الوقت الصعب.

(5)

الآن وقد تركتنا لشأننا

يا سيدي

سنقرع الأبواب وحدنا

مرة بلطف

ومرة بعنف إن لزم الأمر

وسنجلس على عتبات البيوت القديمة

وفي ردهات العمارات الشاهقة

كالأطفال الهرمين

يرسمون على الجدران خطوطا واهية

لنوقع ... ربما ..... بالموت

في شباك الحروف

(6)

لأنه الشتاء

تركت الموقد يشتعل على مهل

لأنه الظلام

ظل النور في غرفتك حتى الصباح

لأنها قلعة النحاس في الدنيا

أبقيت الباب مفتوحا

وهو الدهر أعمى

فتركت له النظارة على المكتب

وانسللت كي لا تعود !

فيا غزلان البحار ويا أسماك الصحاري

جرح في البحر غزال وخنقت في البرية سمكة !!

(7)

يا سيدي هل أقول لك صراحة إنني لست بخير وأن الدنيا رديئة كما تعرفها فالأمطار قليلة على بلادنا هذا العام وهل أقول لك أيضا أن تلك الجلسة في المركز الثقافي الدولي بالحمامات لم تتكرر فقد أغلق ذلك المكان أبوابه أمام المثقفين والشعراء الذين نظموا الملتقى الثالث وكان يحمل اسمك ولكن- معذرة- لم يكن كما نحب وكما نريد وهل أقول أن الملتقى القادم لا أحد تكلم عنه إلى الآن فقد أصبح للشعراء طموحات أخرى غير القصيدة فالبارحة كنا نتناقش ونتشاجر وربما نتقاتل من أجل الشعر واليوم كذلك نحن ولكن من أجل الكراسي وتذكره سفر فبرغم كل شيء سنواصل خطواتنا في درب الكلمة وقد نتعثر وقد نستريح ولكننا يا سيدي لن نسقط أبدا فما أعذب الشعر وما أقصر العمر يا سيدي ها أنك تقول لي: لا تقل كما قيل واطلع مكان الشمس فما أعسر أن نقول أنفسنا بلسان حالنا وما أقرب الشمس إلينا ولكن ما أبعد أصابعنا نحوها ؟ !

**لست بعيدا حتى أذكرك**

**لست قريبا حتى أراك**

**فكل عام وأنت في ذاكرتي حيّ نابض لا تموت !**